

الفصل الحادى عشر

البرتغال تستهل الثورة التجارية

١٣٠٠ - ١٥١٧

لقد جعلت البرتغال الصغيرة من نفسها فى هذا العصر ، دولة من أغنى وأقوى دول أوروبا ، مع أنه لم يكن لها من المزايا الطبيعية غير ساحل يطل على البحر ولم تبلغ هذه المكانة إلا بالعزيمة الخالصة والمغامرة الجسور . ولقد أنشئت الملكية فيها عام ١١٣٩ ، فبلغت حكومتها ولغتها وثقافتها مكانة وطيدة فى عهد أحب حكامها إليها وهو دينيز « العامل » - الإدارى والمصلح والبناء والمعلم ، وداعى الفنون والمكابد الحاذق للأدب والحب . ولقد نضج ابنه أفونسو الرابع بعد حوادث إعدام وقائية ، فأصبح عهده مشمراً ، ربطت فيه التجارة النامية مع إنجلترا ، فى اتحاد سياسى بين الأمتين لا يزال باقياً إلى اليوم . ووجه فونسو ابنه بدرو إلى الزواج من دونا كنستانزا مانويل ، توكيداً لمخالفة رشيدة مع قشتالة الآخذة فى القوة . فاستجاب الابن وتزوجها ، ولكنه استمر على حبه إينيه ده كاسترو ، وهى من أصل ملكى . ولما ماتت كنستانزا ، كانت إينيه عقبه فى سبيل زواج ديبلوماسى آخر لبدرو ، وأمر أفونسو بها فقتلت (١٣٥٥) على مفض . ولقد أورد كامبونز ، الذى يعد ملتن البرتغالى ، هذه القصة الغرامية المشهورة فى ملحمة القومية ، وهى لوزياد :

وهكذا جاءت جماعة القتلة ضد ابنه . . .
وأنفذ الوحوش سيوفهم فى نهديها الأبيضين . . .

وفي سورة غضب صبغوا باللون القرمزي ،
ولن يكون هناك انتقام سماوى بعد ذلك مثله .

واحتفظ بدرو بالرغبة في الثأر ، حتى إذا ورث العرش بعد عامين
من هذا الحادث اقتص من القتلة ، ونبش القبر عن جثمان حبيبته وتوجهها
ملكة ، ثم أعاد دفنها بما تستحقه من مراسم ملكية . وحكم بقسوة
غذتها هذه المأساة .

وثمة قصة أقل شأنًا شوهدت حكم خلفه . ذلك أن فرناندو الأول
فقد رأسه وقلبه في سبيل ليونورا ، زوجة أمير بومبيرو ، وفك خطبته
لأميرة قشتالية ، وتزوج من ليونورا على الرغم من زوجها الذى على قيد
الحياة ومن كنيسة قد أهينت . وبعد أن توفى فرناندو (١٣٨٣) ،
ادعت أنها نائبة ملك ، وجعلت ابنتها بياتريز الملكة ، وخطبتها إلى
جون الأول ملك قشتالة . وثار الشعب لأنه توقع أن يصبح إقطاعياً تابعاً
لقشتالة ، وأعلن مجلس نواب اجتمع في كوامبرا أن العرش البرتغالى انتخبى
واختار دون جيوا - جون - ابن بدرو من أبيه ملكاً على البرتغال .
وأخذت قشتالة على نفسها ، ~~أن تعطي~~ ملك بياتريز بالقوة ، فحشد جون
جيشاً ، واقترض خمسمائة من حملة السهام من إنجلترا ، وهزم القشتاليين في
ألبوباروتا ، وذلك في الخامس عشر من أغسطس عام ١٣٨٥ - وهو اليوم
الذى يحتفل به سنوياً على أنه عيد استقلال البرتغال .

وهكذا افتتح جون الكبير حكمه الذى استمر ثمانى وأربعين سنة ،
كما بدأ أسرة - بين افز - التى جلست على العرش قرنين من الزمان .
واعترف بالإدارة وأصلح القانون والقضاء ، وجعلت اللغة البرتغالية
هى اللغة الرسمية ، وبدأ أدها في الظهور . وكان العلماء هنا ، كما
كانوا في أسبانيا ، يستعملون اللغة اللاتينية ، حتى القرن الثامن عشر ،
ولكن فاسكو دا لوبيرا كتب باللغة القومية قصة فروسية ، أما ديس دا

جولاً (١٤٠٠) التي أصبحت بعد ترجمتها أشيع كتاب غير ديني في أوروبا . وعبر الفن القوي عن نفسه مزدهياً في كنيسة سانتا ماريا دا فكتوريا ، التي شيدها في باطلها جون الأول ، تمجيداً لوقعة ألبو باروتا ، وهي تضارع كاتدرائية ميلان في الحجم ، وكنيسة نوتردام في باريس ، في الفخامة المعقدة للركائز والأبراج . وفي عام ١٤٣٦ أضيفت كنيسة صغيرة جميلة التصميم والزخرف تستقبل رفات الملك ابن السفاح .

ومجد في بنيه . فخلفه دوارت - إدوارد - وأحسن الحكم مثله تقريباً ووحيد بدرو القوانين ، واستهل - هنريك - « هنري الملاح » الثورة التجارية التي قدر لها أن تغير خريطة الكرة الأرضية . ولما استولى جون الأول على سبته من المغاربة (١٤١٥) خلف هنري البالغ من العمر إحدى وعشرين سنة حاكماً على هذا المعقل المنيع ، وهي عند مضيق جبل طارق تماماً . وفتنته روايات المسلمين عن تمبكتو والسنغال والذهب والعاج والعبيد التي يمكن الحصول عليها على طول الساحل الغربي لأفريقيا ، فعزم الشاب الطموح على أن يكتشف تلك الربوع ويضمها إلى البرتغال . فربما قاده نهر السنغال الذي تحدث عنه من أنجروه ، صوب الشرق إلى منابع نهر النيل وإلى بلاد الحبشة المسيحية ، وبذلك يفتتح طريق مائي عبر إفريقيا من المحيط الأطلسي إلى البحر الأحمر - ومن ثم إلى الهند ، ويتحطم الاحتكار التجاري للتجارة مع الشرق ، وتصبح البرتغال دولة كبرى . وقد يدخل سكان الإقليم بعد فتحه في المسيحية ويحصر الإسلام في إفريقيا من الشمال ومن الجنوب بدول مسيحية ؛ ويصير البحر الأبيض المتوسط آمناً للملاحة المسيحية . ويبدو أن هنري لم يفكر في طريق يدور حول أفريقيا ، ولكن هذا الطريق كان ثمرة جهده .

ولقد أقام حوالي عام ١٤٢٠ في ساجرس على الطرف الجنوبي الشرقي للبرتغال وأوروبا ، داراً لاستخلاص الأخبار المتعلقة بالمعرفة والمغامرة

البحريتين . وجمع ودرس هناك ، هو ومعاونوه ، وفيهم فلكيون ورسامو خرائط من اليهود والمسلمين في مدى أربعين سنة تقارير الملاحين والرحالة ، وسيروا إلى البحار المخفوفة بالمخاطر ، سفناً خفيفة ، مزودة بالأشعة والمجاذيف ، ويقوم عليها من ثلاثين إلى ستين رجلاً . وكان أحاً قباطنة هنرى قد أعاد كشف ماديرة (سنة ١٤١٨) ، التي سبق أن رآها البحارة الجنويون قبل ذلك بسبعين سنة ثم عفى عليها النسيان ، ولقد طور وقتذاك المستعمرون البرتغاليون مواردها ، وسرعان ما عوضت غلته من السكر وغيره من المنتجات ، نفقات الاستعمار ، وشجعت الحكومة البرتغالية على الاستجابة لمطالب هنرى إلى المال ولاحظ جزر الأزور على خريطة إيطالية رسمت عام ١٣٥١ ، فأرسل جنرالو كابرال للبحث عنها ، وتحقق مزاجه وبين عامي ١٤٣٢ - ١٤٤٤ ، ضم هذه الجواهر البحرية ، الواحدة بعد الأخرى إلى التاج البرتغالي .

بيد أن أفريقيا هي التي استموته أكثر من غيرها . ولقد أبحر البحارذ القطلونيون والبرتغاليون ، ما يقرب من تسعمائة ميل على طول الساحل الغربي إلى بوجا دور (١٣٤١ - ٤٦) . ومع ذلك . فإن النتوء الكبير للقارة العظيمة الممتد غرباً في المحيط الأطلسي ، قد ثبط همم البحارة في الكشف عن الجنوب ، فانسحبوا إلى أوربا متعللين بحكايات عن المواطنين المفزعين ، وعن بحر تشدد كثافة الملح فيه إلى حد لا تستطيع معه أن تشقه أى سفينة ، وعن دلائل تؤكد أن كل مسيحي يجاوز بوجا دور ينقلب إلى زنجي . ولقد رجع القبطان جيليان إلى سامبرس بأعداد مشابهة عام ١٤٣٣ ، فأمره هنرى أن يعيد الكرة ، وطالبه أن يعود ببيان واضح عن الأراضي والبحار جنوبى الرأس المحرم . وأدى هذا التحريض بجيليان إلى أن يصل إلى مسافة تبعد مائة وخمسين ميلاً عن بوجادور (١٤٣٥) وأذهله ما رآه من وفرة النبات في المناطق الاستوائية ، مناقضاً ما قال به أرسطو وبطليموس ، من أن

الصحارى هي التي توجد فقط تحت الشمس المحرقة ، وبعد ذلك بست سنوات أبحر نونوترستاو ، إلى رأس بلانكو ، وعاد إلى موطنه ومعه بعض الزنوج الأشداء ، الذين سرعان ما عمدوا واستعبدوا ، وشغلهم الأمراء الإقطاعيون في المزارع البرتغالية ، وكانت أول نتيجة هامة لجهود هنرى ، هي افتتاح تجارة الرقيق . وزود الأمير بمعونة مالية جديدة . وأبحرت سفنه لتستكشف وتنصر الأهلين في الظاهر ، ولتحصل على الذهب والعاج والعبيد في الواقع . وعاد القبطان لانزاروت عام ١٤٤٤ ومعه مائة وخمسة وستون زنجياً ، وقد شرعوا في فلاحه أراضي فرقة يسوع المسيح الرهبانية العسكرية . ولقد وصف معاصر برتغالي اقتناص هؤلاء الزنوج بقوله :

كان رجالنا يهتفون ، « القديسة ياجو ، القديس جورج ، البرتغال » . ويسقطون عليهم فيقتلون أو يخطفون كل من تقع عليه أيديهم . وقد تشاهد هناك أمهات يهربن بأطفالهن ، وأزواجاً يفرون بزوجاتهم وكل منهم يبذل - قصاراه للنجاة . يتفزع بعضهم في البحر ، وبرى بعضهم أن يختبئ في أركان أخصاصهم ، وخبأ البعض أطفالهم تحت الشجيرات . . . حيث كان رجالنا يعثرون عليهم . والله الذي يمنح كل إنسان ما يستحق من جزاء وهب رجالنا آخر الأمر في ذلك اليوم النضر على أعدائهم ، وتعويضاً لهم على ما بذلوه من عناء في خدمته أخذوا مائة وخمسة وستين بين رجال ونساء وأطفال ، ولم يحسب القتلى في هذا العدد .

ولم يأت عام ١٤٤٨ حتى كان قد أحضر إلى البرتغال نيف وتسعمائة عبد ، ويجب أن نضيف أن المسلمين في شمال أفريقيا قد سبقوا المسيحيين في نشر تجارة الرقيق ، وكان زعماء الزنوج أنفسهم يبتاعون الرقيق من البرتغاليين في مقابل الذهب والعاج ، وكان الإنسان سلعة للوحوش الآدمية المفترسة . ولقد بلغ دينيز دياز عام ١٤٤٥ الجبل الحصب الداخل في البحر المعروف بالرأس الأخضر ، واكتشف لانزاروت عام ١٤٤٦ مصب نهر السنغال ،

وعثر كادا موستو عام ١٤٥٦ على جزر الرأس الأخضر . وفي هذه السنة مات الأمير هنرى ، ولكن المغامرة استمرت بالحافز الذى منحها إياه وبالغنى الاقتصادى الذى يمولها . وعبر جواو ده سانتارم خط الاستواء (١٤٧١) . ووصل دو يوجوكاو إلى نهر الكونغو (١٤٨٤) ، وأخيرا أشق بارثلميو دياز ، بعد نصف قرن من حملة هنرى الأولى ، طريقه وسط العواصف وإغراق السفن ، حتى طاف بأقصى الطرف الجنوبى لأفريقيا (١٤٨٦) . وابتهج عندما وجد أنه يستطيع بذلك الإبحار شرقا ، فالهند مستقيمة أمامه ، وقد بدت فى قبضته تقريبا ، ولكن رجاله المتعبين أرغموه على العودة ، فندب البحار القاسية التى خلعت قلوب رجاله فأطلق على الطرف الجنوبى لأفريقيا اسم رأس النداب ، ولكن الملك جون الثانى ، رأى الهند بعد الانحناء أطلق على الموضع اسم رأس الرجاء الصالح .

ولم يعش دياز أو الملك ليريا تحقق الحلم الذى أثار البرتغال بأسرها وهو طريق مائى كامل إلى الهند ، واستشعر الملك عمانويل الغيرة للثروة والتشريف اللذين جلبهما كولمبوس إلى إسبانيا فكلف عام ١٤٩٧ فاسكودا جاما ، أن يبحر حول إفريقيا إلى الهند ، ولقد أبحر القبطان البالغ من العمر ثمانية وعشرين عاما ، وقد أرغمته العواصف أن يتخذ طريقا دائريا ما يقرب من خمسة آلاف ميل فى مائة وسبعة وثلاثين يوما حتى بلغ رأس الرجاء الصالح ، ثم رحل أربعة آلاف وخمسمائة ميل فى مائة وثمانية وسبعين يوما أخرى . . تتخللها مئات المخاطر والأهوال حتى بلغ كاليكوت وهى ملتقى رئيسى للتجارة بين الشرق والغرب وبين الشمال والجنوب فى آسيا ، وألقى مراسيه هناك فى العشرين من مايو عام ١٤٩٨ ، أى بعد عشرة أشهر واثني عشر يوما من تركه لشبونه ، وما أن هبط إلى البر حتى قبض عليه باعتباره قرصانا ونجا من الإعدام بأعجوبة . وتغلب بشجاعته النادرة ومنطقه الخلاب على ارتياب الهنود فيه وغيره المسلمين منه وظفر بالترخيص للبرتغاليين

بالتجارة وأخذ معه مقداراً عظيماً من الفانيل والزنجبيل والقرفة وجوز الطيب والجواهر وترك كاليكوت في التاسع والعشرين من أغسطس في رحلة شاقة استغرقت سنة عائداً إلى لشبونة . وهكذا وجد البرتغاليون آخر الأمر طريقاً إلى الهند متحرراً من نقل السلع من سفينة إلى أخرى ومن المكوس المفروضة على الطرق البحرية والبرية في إيطاليا عبر مصر وبلاد العرب وفارس . وكانت النتائج الاقتصادية أكثر حيوية لأوروبا مدى قرن كامل من تلك التي نجمت عن اكتشاف أمريكا .

ولم يفكر البرتغاليون إلى عام ١٥٠٠ في محاولة الإبحار غرباً لأنهم اعتزلوا بالوصول إلى الهند الحقيقية ، بينما كان الملاحون الإسبان يتخبطون في جزر الهند المزعومة بالبحر الكاريبي . بيد أن بدرو كبرال وقع على البرازيل في تلك السنة بعد أن جرفته الرياح عن الطريق الذي سلكه إلى الهند عن طريق إفريقيا ، وفي هذه السنة أيضاً أعاد جناسبار كورت ريال اكتشاف لبرادور . وفي عام ١٥٠٣ اكتشف أمريجو فيسبوتشي في ظل العلم البرتغالي ريوبلاتا وباراجواي ، وعثر ترستاو داكونها على الجزيرة التي تحمل اسمه في النصف الجنوبي من المحيط الأطلسي . ومع ذلك فقد رأى السياسيون البرتغاليون ، البرازيل قليلة الغناء في حين أن كل حمولة تأتي من الهند تملأ خزائن الملك وجيوب التجار والملاحين .

واحتفظت الحكومة البرتغالية بالسيطرة الكاملة على التجارة الحديدية ، ما دامت التجارة تحتاج إلى حماية عسكرية صارمة . وكان التجار المسلمون قد وطدوا أقدامهم منذ أمد طويل في المراكز الهندية ، وانضم إليهم بعض ذوى النفوذ من الهنود في مقاومة الغزو البرتغالي ، واختلطت إذ ذاك التجارة بالحرب والمال بالدم في هذه الثورة التجارية العارمة . وأصبح أفونسو دالبوكرك أول حاكم على الهند البرتغالية عام ١٥٠٩ وشن هجوماً بعد هجوم على المسلمين والهندوس حتى استولى على عدن وهرمز على الساحل الغربي

وحرصهما . كما استولى على جوا في الهند وملقة في شبه جزيرة الملايو ، ومن ملقة أحضر إلى بلاده غنيمة مقدارها مليون بندقي . وأصبحت البرتغال بفضل تسليحها على هذا النحو سيدة التجارة الأوربية مع الهند وجزر الهند الشرقية مدى مائة وخمسين سنة . ووطد التجار البرتغاليون أقدامهم شرقاً حتى بلغوا مولوكاس (١٥١٢) وابتهجوا إذ وجدوا جوز الطيب والتوابل وللقرنفل في جزر التوابل هذه ألد طعماً وأرخص ثمناً منها في الهند . ولم يقنع البوكرك بما حققه فأبحر ومعه عشرون سفينة إلى البحر الأحمر واقترح على ملك الحبشة المسيحي أن يجمعوا قواتهما ليحفرا قناة من النيل الأعلى إلى البحر الأحمر وبذلك يحولان مجرى النهر ويجعلان مصر الإسلامية بأسرها صحراء قاحلة . وأرغمت المتاعب البوكرك أن يقفل راجعاً إلى جوا حيث مات عام ١٥١٥ . وفي العام التالي فتح دوارت جولو ، الصين الكوشينية^(١) وسيام للتجارة البرتغالية ، وفي عام ١٥١٧ أنشأ فرناو بيرز ده اندراد علاقات تجارية مع كانتون وبيكين .

وأصبحت الإمبراطورية البرتغالية - وهي أول إمبراطورية استعمارية حديثة - أوسع الإمبراطوريات رقعة في العالم ، لا تضارعها إلا الإمبراطورية التي تتكون لأسبانيا في الأمريكتين . وأضحت لشبونة سوقاً تجارية نافقة ، ترسو في مياها سفن آتية من بلاد رومانسية بعيدة . ووجد تجار أوروبا الشمالية أن تفشل البندقية وجنوة في الحصول على السلع الآسيوية بأرخص الأسعار . وحزنت إيطاليا على احتكارها المفقود للتجارة الشرقية . وأصيبت النهضة الإيطالية بضربات قاضية على يد كولبوس وفاسكو دا جاما ولوثر في جيل واحد ، فضعف أمرها وذبلت ، بينما سبقت البرتغال وأسبانيا ، اللتان سيطرتا على البحار المفتوحة في الازدهار الدول التي على المحيط الأطلسي .

(١) أخص دولة نامية الجنوب في الهند الصينية الفرنسية .

وانتعش الأدب والفن بهذا المجد الطريف . وأخذ فرنار لوبس
يصف مدى عشرين سنة (١٣٣٤ - ٥٤) « تاريخه » الضخم الذي سرد
فيه قصة البرتغال تتدفق في السرد وقدره على التشخيص يضارعان ما عند
فروسار . واستهل جيل قيسانت الدراما البرتغالية بمسرحيات صغيرة للبلاط
وفصول تمثل في الأعياد العامة (١٥٠٠) وظهرت مدرسة برتغالية في
التصوير ، اتخذت قدوتها في غلاندرز ولكنها حققت مزاجها ومزاياها
الخاصة . وبلغ نوتوجونكالفرز شأو مونتانيا وكاد يضارع آل فان ايكس ،
في مجموعة صوره القائمة التي رسمها لدير القديس سانت فنسنت . فإن
الصور الجدارية بدائية في المنظور والنسق ، بيد أن صور الأشخاص
الخمسة والخمسين - وأحسنها صورة هنري الملاح - تبرز الشخصية
الفردية ببراعة واقعية . وأراد الملك عمانويل المحدود أن يخلد ذكرى رحلة
فاسكودا جاما المظفرة ، فكلف المعمارى جواد القشتالى ، أن يشيد بالقرب
من لشبونه دير بلم (١٥٠٠) الضخم على الطراز القوطى المشع . وهكذا
دخلت البرتغال في عصرها الذهبي .